"هجرة زعماء الطرق الصوفية التونسية نحو الجزائر ونشاطهم السياسي والديني

الشيخ سيدي علي نفطي والحاج محمد لخضر السهيلي أنموذجا

د.جمعة بن زروال- جامعة باتنة

مقدمة

تعود الجذور التاريخية للعلاقة الأخوية بين المجتمع الجزائري والتونسي إلى العصور القديمة إذ اختلط المجتمع الجزائري القديم بالمجتمع التونسي منذ عهد الدولة القرطاجية والنوميدية وفترة الاحتلال الروماني والبيزنطي لبلاد المغرب القديم وبعد الفتح الإسلامي لبلاد المغرب ازدادت العلاقات الاجتماعية والثقافية توسعا وعمقا أما في العصور الحديثة فقد عرفت العلاقات بين الشعبين الجزائري والتونسي تطورا وتمازجا كبيرا خاصة بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر 1830 بسبب الهجرة الجزائرية نحو تونس و التونسية نحو الجزائر خاصة زعماء الطرق الصوفية والعائلات الثرية و التي ازدادت واشتدت أكثر في أواخر القرن 19 وبداية القرن 20.

فما أسباب الهجرات الجزائرية التونسية ومن هم روادها ؟

وماهي أهم الطرق الصوفية التونسية التي هاجرت نحو الجنوب الجزائري ومن هم مشايخها ؟.

للإجابة عن هذه الأسئلة يجدر بنا أن نتطرق أولا إلي الهجرة الجزائرية نحو تونس لأنها كانت الأكثر نشاطا وعددا خاصة هجرة العلماء وزعماء الطرق الصوفية مثل: عائلة الثعالبي التي ينسب إليها زعيم الحركة الوطنية التونسية عبد العزيز الثعالبي * وعائلة قلاتي التي ينسب إليها المناضل التونسي حسن قلاتي* والتي هاجرت عائلته إلى تونس سنة 1882 [1] ومن بين زعماء الطرق الصوفية التي هاجرت إلى تونس بعد الاحتلال الفرنسي الشيخ مصطفى بن عزوز* زعيم الطريقة الرحمانية في الجنوب الشرقي الذي أسس زاوية طولقة الرحمانية والذي هاجر إلى تونس بعد احتلال فرنسا لبسكرة إذ أسس زاوية

رحمانية بنقطة بالجنوب التونسي وكان للشيخ عدد من الأبناء هم: الحفناوي الذي خلفه علي زاوية نفطة ومحمد الذي أسس زاوية بالقيروان[2].

وهجرة سليمان بن جلاب آخر سلاطين بن جلاب في توقرت الذي فر إلى تونس 1854 وهجرة إبراهيم بن عبد الله شيخ الطريقة القادرية الجيلانية بورقلة، وهجرة محمد بن يعقوب زعيم أولاد يعقوب الأغواطيين وهجرة الشيخ محمد رزوق بن سيدي صالح البسكري وهجرة الشيخ الميزوني شيخ زاوية الكاف وهجرة بن هلال كاتب الأمير عبد القادر[3]...فكل هؤلاء العلماء وشيوخ الطرق الصوفية هاجرو من الجزائر إلى تونس بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر بسبب السياسة الاستعمارية الفرنسية من مصادرة الأراضي وفرض الضرائب ومنع التدريس العربي ومصادرة أملاك الأوقاف والزوايا...

بعد الإحتلال الفرنسي للجزائر 1830 واندلاع المقاومات الشعبية في الجزائر ظهرت الهجرات الجماعية نحو الدول المجاورة للجزائر خاصة تونس والتي عرفت هجرات كبيرة من طرف الجزائريين بسبب سوء السياسة الفرنسية والقوانين الردعية التي فرضتها على الأهالي وبسبب قانون التهجير الذي أصدرته فرنسا ضد زعماء المقاومات الشعبية وعائلاتهم وأعراشهم.

إذ هاجر إلى تونس الآلاف من الجزائريين هروبا من السياسة الفرنسية ففي خلال مقاومة الحاج أحمد باي والأمير عبد القادر في الثلاثينات والأربعينات من القرن 19 لجأ إلى تونس عدد كبير من المقاومين الجزائريين منهم: الشيخ الحسناوي بن بلقاسم الحناشي وهاجر إليها ثوار مقاومة الزعاطشة بعد تخريبها إلى منطقة نفطة وتوزر ونفزاوة بإقليم الجريد وهاجر إليها خليفة الأمير عبد القادر ومحمد الصغير بن عبد الرحمان والشريف محمد بن عبد الله وثوار الزواغة وفرجيوة سنة 1846[4].

وفي سنة 1872 وبعد القضاء على مقاومة الحاج المقراني إلتجأ من نجا منهم إلى تونس واستنجدوا بباياتها وكان عددهم أكثر من 504 عائلة. وهاجر إليها القائدين الثائرين محمد الكبلوني وبن الطاهر رزقي وبن الناصر بن شهرة * إذ تدخل الأمير عبد القادر من دمشق واتصل بباياتونس من أجل حماية المهاجرين الثوار والقادة الثائرين الجزائريين بهدف حمايتهم وحل مشاكلهم[5]..

وفي بداية القرن العشرين ازدادت الهجرة الجماعية من الجزائريين نحو تونس خاصة بعد فرض قانون التجنيد الإجباري وبسبب الفقر والمجاعات هاجرت العديد من الأسر والقبائل نحو تونس خاصة

من منطقة وادي سوف وبسكرة والزيبان ووادي ميزاب وورقلة وتبسة إلى الأراضي التونسية مما ساهم في التلاحم ما بين الشعبين التونسي والجزائري إذ شارك الجزائريين مع إخوانهم التونسيين في مقاومة الغزو الفرنسي لتونس 1881 في ثورة جبال الخمير ووشتاتة والفراشيش * وبني مازن والقيروان وصفا قص[6].

وبهذا نستخلص أن الهجرات الجزائرية نحو تونس كانت كثيرة ومتنوعة وازدادت أكثر بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر إذ هناك العديد من الدراسات والأطروحات الجامعية حول التواجد الجزائري في تونس .

أما مايخص الجانب التونسي فالدراسات الجزائرية حول الهجرة التونسية نحو الجزائر قليلة بالمقارنة مع الدراسات عن الجزائر خاصة في فترة القرن التاسع عشر ويعود سبب ذلك إلي الأوضاع السياسية التي تميزت بها تونس إذ كانت ايالة مستقلة ولم تخضع للحكم الفرنسي بعد بالمقارنة مع الجزائر التي احتلت منذ 1830 مما أدي إلي هجرة الآلاف من الأهالي الجزائريين نحو الدول المجاورة .

ظهر التواجد التونسي في الجزائر في العصر الحديث منذ العهد العثماني وتمثل في هجرة بعض علماء وشيوخ الطرق الصوفية التونسية نحو الجزائر بسبب سوء سياسة بايات تونس وقمعهم لبعض شيوخ الطرق الصوفية أو نظرا لظروف اجتماعية واقتصادية معينة أدت إلي هجرة بعض شيوخ الطرق الصوفية نحو الجزائر ومن بين هؤلاء الشيوخ الذين هاجروا إلي الجزائر سوف نركز علي شخصيتين الأولي عاصرت الحكم العثماني في الجزائر و الثانية عاصرت الاحتلال الفرنسي معتمدين في دراستنا علي بعض المصادر الأرشيفية الفرنسية و عدة مراجع جزائرية وتونسية .

أولا /الشيخ سيدي علي نفطي التونسي ودوره الديني في منطقة جنوب الاوراس

سيدي علي نفطي هو شيخ طريقة صوفية ظهرت في الجنوب التونسي بمنطقة توزر في أواخر القرن الثامن عشر.

ولد سيدي علي في نفطه في العشرينات من القرن الثامن عشر حفظ القران ودرس العلوم الدينية في نفطه وأسس زاوية في منطقة توزر تميزت طرقته بأنها طريقة تتبع مذهب أهل السنة وتعارض مذهب الفرق كالخوارج (7)

انتشرت طريقة سيدي علي الصوفية في الجنوب التونسي خاصة في منطقة الجريد ولم تتوسع في المناطق الشمالية تتميز هذه الطريقة بان إتباعها يبهرون المتفرجين بوضعهم السنة النار في مواضع

مختلفة من أجسامهم دون إن يحترقوا إذ قدر أتباع هذه الطريقة في تونس سنة 1925 ب 2457 مريد ألف الشيخ سيدي علي نفطي كتاب بعنوان (الرد علي الخوارج)

توفي سيدي علي نفطي سنة 1213 هـ الموافق 1792 (8)

في جنوب الاوراس بقرية غوفي* إذ يوجد قبره في اعلي سفح الجبل وعن سبب انتقاله إلي الاوراس فهو غير معروف فربما لظروف سياسية أو اجتماعية إذ يعتبر قبره من المزارات الخاصة بأولياء الله الصالحين لدي سكان جنوب الاوراس الذين كانوا يقصدونه في القرن التاسع عشر للتبرك به وانشأ علي قبره مسجدا (9)

أما أتباع هذه الطريقة فكانوا يأتون من جنوب تونس إلي قرية غوفي ويمارسون طقوسهم الدينية ويزورون قبر شيخهم إلي غاية فترة الثلاثينات من القرن العشرين(10)

ونظرا لقلة المصادر التاريخية حول هذه الطريقة الصوفية بسبب بعد الفترة التاريخية والتي تعود إلي أواخر العهد العثماني لم يتسن لنا التوسع أكثر في هذا الموضوع إلا أننا نستنتج أن الشيخ سيدي علي نفطي التونسي ساهم بدور كبير في النشاط الديني لدي سكان جنوب الاوراس فبعد وفاته حافظ سكان الاوراس علي ذكري الشيخ واقامو له قبرا ومسجدا كان مزارا لسكان المنطقة لعدة عقود .

ثانيا/ الحاج محمد لخضر السهيلي التيجاني

ولد الحاج محمد السهيلي في منتصف القرن التاسع عشر بقرية تبرسق ينتمي الي الطريقة الصوفية التيجانية * الموجودة بقرية تبرسق قرب باجة علي طريق تونس الكاف والتي تبعد عن العاصمة التونسية ب 100 كلم اذ تتلمذ علي شيوخ التيجانية العلوم الدينية وحفظ القران في عدة زوايا بتونس (11)

1/تعاليمه ونشاطه الديني

أسس الحاج محمد السهيلي زاويته بتبر سق معتمدا علي تعاليم الطريقة التيجانية حيث تفرغ للتدريس وتعليم حفظ القران في زاويته إذ استطاع يجمع المئات من المريدين والطلبة مركزا علي الذكر والدعاء ومن بين أهم أذكاره وهي عبارة عن مخطوطات بخط يده وجدناها بمركز ارشيف ماوراء البحار من بينها مايلي/

(استغفر الله العظيم وأتوب إليه

لا اله إلا الله محمد رسول الله في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله)

ثلاث مئة مرة

(اللهم صلي وسلم وبارك علي سيدنا ومولانا محمد الفاتح لما أغلق و الخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق والهادي إلي الصراط المستقيم وعلي اله حق قدره ومقداره العظيم)

(اللهم إنا نستعين بك ونستغفرك ونؤمن بك نتوكل عليك ونخضع لك ونخلع ونترك من يكفرك اللهم إياك نعبد ولك نصلى ونسجد واليك نسعى وترجوا رحمتك ونخاف عذابك) (12)

فحسب هذه الاذكارالموجودة في المخطوطات كلها أذكار صحيحة مستمدة من تعاليم الدين الإسلامي الصحيح ولا تعتمد علي الطلاسم والبدع والشعوذة التي تميزت بها بعض الطرق الصوفية في فترة أواخر القرن التاسع عشر دليل علي حسن دراسة الحاج محمد السهيلي لمبادئ الدين الإسلامي الخالية من الشوائب والشبهات

تميز الشيخ بكثرة تنقلاته و زياراته لشيوخ الزوايا خاصة التيجانية منها سواء في تونس مثل زيارة الزاوية التيجانية ببوعرادة المعروفة بزاوية سيدي صالح التيجانى وكانت للشيخ صداقة متينة مع احمد التيجاني بن محمد العباسي شيخ زاوية قايس

وكانت له علاقات وزيارات لزعماء الطرق الصوفية السنوسية بطرابلس والجبل الأخضر

فالقب بالحاج محمد الأخضر الشريف السهيلي التيجاني السنوسي دليل علي تلقنه وامانه بتعاليم الطرقتين الصوفيتين

وبهذا نستخلص أن الشيخ كان له نشاط تعليمي ديني في زاويته وكانت له عدة اتصالات مع شيوخ الطرق الصوفية في تونس وليبيا والجزائر

2/ رحلته إلي الجزائر ونشاطه الديني والسياسي

بعد الاحتلال الفرنسي لتونس سنة 1881 تغيرت اوظاع المجتمع التونسي خاصة الاقتصادية منها بسبب مصادرة فرنسا لأراضي الأوقاف فتأثرت الزوايا والطرق الصوفية إذ اتبعت فرنسا سياسة ممنهجة مع زعماء الطرق الصوفية استمدتها من تجربتها في الجزائر فا لواقع ألطرقي با لجزائر قد حدد إلي حد كبير ملامح السياسة الاستعمارية لفرنسا تجاه الطرق الصوفية التونسية والتي تتمثل في مايلي /

–ضرب الاحباس العامة والخاصة بمصادرة أملاك الأوقاف التا بعه للطرق الصوفية بالاستيلاء عليها بسن قانون الإنزال الذي أصدرته فرنسا في 18 أوت 1885 .

– منع الزيارات و الصدقات والتي تمثل موردا هاما للطرق الصوفية تحت ذريعة تفقير السكان مما يجعلهم عاجزين عن دفع الضرائب .

– تفقير السلط الاستعمارية للطرق الصوفية ومشايخها بتضييق الخناق عليها وإضعافها بضرب المقومات المادية للطرق باعتبارها السند المالي الأساسي لها (13).

– مراقبة الاستعمار الفرنسي لشائخ الطرق والزوايا ومن بين الشخصيات التي راقبتهم الحاج محمد لخضر السهيلي بسبب نشاطه السياسي والديني ومحاولة اتصاله بشيوخ الطرق الصوفية السنوسية في ليبيا والتيجانية في الجنوب الشرقي الجزائري .

أولا / رحلته إلي طرابلس وجزيرة مالطة

اختلفت المصادر عن أسباب رحلة الحاج محمد السهيلي إلي ليبيا فهناك من يرجعها إلي دوافع اجتماعية بسبب الفقر بمصادرة أوقاف الزوايا التي كان يشرف عليها وهناك من يسندها إلي دوافع سياسية خاصة المصادر الفرنسية التي كانت تراقب الشيخ في تنقلاته من تونس إلي مالطة وطرابلس عبر قنصليتها

المتواجدة في هاتين المدينتين إذ أرسلت قنصلية فرنسا في مالطة عدة رسائل وتقارير عن تحركات الحاج السهيلي إذ كتبت في احدي مراسلاتها إلي الحاكم العام في الجزائر المؤرخة في يوم31 جانفي 1898 (....إن المدعو محمد بن لخضر السهيلي قد رحل من جزيرة مالطة في يوم 19 جانفي 1898 متجها نحو طرابلس .... .) .

وكان هدف رحلته إلي طرابلس هو جمع المساعدات المادية لزاويته و زيارة بعض شيوخ الطرق الصوفية بالجبل الأخضر (14)

ثانيا / رحلته إلي الجنوب الشرقي الجزائري

بعد تردي الأوضاع الاقتصادية التي عرفتها تونس بعد الاحتلال والتي أثرت علي الحالة الاجتماعية لبعض الطرق الصوفية قرر الحاج محمد السهيلي الانتقال إلي الجزائر في رحلة لزيارة شيوخ الطريقة التيجانية في الجنوب الشرقي توقرت وتماسين * لطلب المعونة والمساعدة المادية اوطلب الهجرة والاستقرار في الجزائر قرب مقر الزاوية التيجانية بعين ماضى * فحسب التقارير الفرنسية التي ذكرت في مرسلاتها مع حاكم عام الجزائر

في بداية شهر فيفري 1898 دخل الأراضي الجزائرية شخصين أجنبيين من أصول تونسية يحملان جواز سفر صدر من بيروت الأول يدعي مصطفي بن محمد والثاني يدعي محمد الأخضر السهيلي .

ففي شهر افريل 1898 قبض عليهما بمنطقة المسيلة عند القائد مول الحدبة الذي وشي بهم لدي القائد العسكري الفرنسي إذ وجد أثناء إلقاء القبض عليه مجموعة معتبرة من المخطوطات الدينية والأذكار والأدعية .

أرسل الشيخ السهيلي إلي سجن تعضميت التي تقع بين الجلفة والاغواط بعد إصدار حكم عسكري بسجنه لمدة سنة 1898/ 1899 .

فمن سجنه بعث الشيخ عدة رسائل إلي الحاكم العسكري الفرنسي طالبا إطلاق سراحه وانه جاء إلي الجزائر ليس لأغراض سياسية وانه يريد التوجه نحو توقرت لزيارة شيخ الطريقة التيجانية ثم العودة إلي تونس

مكث الشيخ في سجن تعضميت مدة سنة كاملة ولم تشفع له الرسائل التي كان يرسلها للسلطة الفرنسية ولا تدخلات شيوخ الطريقة التيجانية وهذا بسبب خوف فرنسا من نشاطه السياسي نظرا لتنقلاته الكثيرة واتصالاته بشيوخ السنوسية بطرابلس (15)

وبعد إطلاق سراحه سنة 1899 عاد إلي موطنه تونس وازدادت أوضاع زاويته سوء ا وفقرا بسبب تضييق ومراقبة فرنسا لنشاطه الديني مما اجبره في سنة 1901 التوجه نحو السلطة الفرنسية طالبا الإعانة والمساعدة (16) .

وفي الأخير نستنتج إن فرنسا استعملت مختلف الطرف والوسائل لقهر واستمالة شيوخ الطرق الصوفية سواء في الجزائر وتونس وان التواصل بين الشعب الجزائري والتونسي تمثل في عدة مجلات سياسية

واقتصادية واجتماعية وثقافية وان منطقة الجنوب الشرقي للجزائر هي أكثر المناطق استقطابا لتمازج الشعبين .

الهوامش/

* **عبد العزيز الثعالبي**: مؤسس حزب الدستور التونسي، ساهم في الحركة الوطنية التونسية ألف عدة كتب أهمها " تونس الشهيدة"

* **حسن قلاتي**: مناضل في الحزب الدستور التونسي، درس بمدرسة الخلدونية وساهم في تأسيس حزب الدستور التونسي الجديد.

(1)الجمعي خمري: حركة الشبان الجزائريين والتونسيين 1900-1930 – دراسة تحليلية وسياسية مقارنة- أطروحة دكتوراه- جامعة قسنطينة:2002-2003، ص504.

* **مصطفى بن عزوز**: مؤسس الزاوية الرحمانية بطولقة ، هاجر إلى تونس وأسس زاوية رحمانية في نفطة

(2)أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء 4، 1830-1954، دار الغرب الإسلامي، بيروت،1998، ص182.

(3)يحي بوعزيز: موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب،ج2، دار الهدي عين مليلة، 2004، ص203.

(4)يحي بوعزيز: المرجع انفسه، ص203.

* **ابن ناصر بن شهرة بن فرحات:** ولد سنة 1804 من قبائل الرباع نواحي الأغواط ثار ضد الاستعمار الفرنسي من 1851 إلى 1873 نفي الي تو نس ثم إلى بلاد الشام وتوفي فيها سنة 1873.

(5)يحي بوعزيز: علاقة الأمير عبد القادر وحلفائه بالمملكة التونسية، محاضرة ألقيت في ملتقى الأمير عبد القادر،1998، ص87-88.

* ثورة الفرا شيش. ظهرت بمنطقة تالة بتونس سنة 1906 قادها عمر بن عثمان الذي ينتمي الي الطريقة الرحمانية .

(6)يحي بوعزيز: المرجع السابق ، ص205.

(7) التليلي العجيلي .الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي 1881 1939 .منشورات كلية الاداب منوبة .تونس 1992.ص 56

(8) المرجع نفسه .ص66

* **غوفي** .قرية تقع جنوب شرق ولاية باتنة ببلدية غسيرة دائرة تكوت علي الطريق الولائى بسكرة باتنة عبر أريس تبعد عن بسكرة ب 45 كلم تشتهر بشرفاتها وبمناظرها الطبيعية التي تجلب السياح .

(9) les archives d'autre mer, Aix- en provence- France, boite n° 15k28, historique de la tribu du Rassira.

, Le Merabous Si Ali Nafti

(10) جمعة بن زروال .وادى غوفي دراسة تاريخية أثرية .الملتقى الوطني حول الآثار ودورها في إبراز الهوية الوطنية .المنعقد بقسنطينة يوم 10 نوفمبر 2010

* **الطريقة التيجانية:** تأسست في مدينة فاس في المغرب سنة 1782 من طرف أحمد بن محمد المختار التيجاني المولود في عين ماضي بولاية الأغواط حاليا، توسعت هذه الحركة في الجنوب الجزائري والسودان وأواسط إفريقيا، ساهمت في نشر تعاليم الدين الإسلامي واللغة العربية، وفي أواخر القرن التاسع عشر تم تهجين هذه الطريقة سياسيا إذ أيدت الفرنسيين ضد مقاومة الأمير عبد القادر،

(11) التليلي العجيلي .مرجع سابق .ص 107

.

(12) A.O.M, boite n° 1H31 .ELHADJ MOHAMED LAKDER ES SOHEILI.

(13) التليلي العجيلي .مرجع سابق .ص ص 99. 100. 101

(14) A.O.M, boite n° 1H31 .ELHADJ MOHAMED LAKDER ES SOHEILI .opcit .

* **تماسين:** منطقة تقع في ولاية ورقلة. توجد بها الزاوية التيجانية

* **عين ماضى** .دائرة تقع شمال ولاية الاغواط يو جد بها مقر الزاوية التيجانية

(15)A.O.M, boite n° 1H31 .ELHADJ MOHAMED LAKDER ES SOHEILI *ibid.*

(16) التليلي العجيلي . مرجع سابق ص 107 .

قائمة المصادر والمراجع .

الوثائق الارشيفية .

(1) les archives d'autre mer, Aix- en provence- France, boite n° 15k28, historique de la tribu du Rassira.

(2) A.O.M, boite n° 1H31 .ELHADJ MOHAMED LAKDER ES SOHEILI

المراجع بالعربية .

أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء 4، 1830-1954، دار الغرب الإسلامي، بيروت،1998، ***(1)***

(2) التليلي العجيلي . الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي 1881 1939 .منشورات كلية الاداب منوبة .تونس.1992

(3) الجمعي خمري: حركة الشبان الجزائريين والتونسيين 1900-1930 – دراسة تحليلية وسياسية مقارنة- أطروحة دكتوراه جامعة قسنطينة 2002 /2003 .

(4) يحي بوعزيز: موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب،ج2، دار الهدي عين مليلة 2004 .

(5) يحي بوعزيز: علاقة الأمير عبد القادر وحلفائه بالمملكة التونسية، محاضرة ألقيت في ملتقى الأمير عبد القادر 1998 .

(6) *جمعة بن زروال .وادى غوفي دراسة تاريخية أثرية .الملتقى الوطني حول الآثار ودورها في إبراز الهوية الوطنية .المنعقد بقسنطينة 10 نوفمبر 2010 .*